المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي

قراءة في كتاب: المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي

المؤلف: د. فروزان الراسخي

الناشر: دار الهادي، بيروت ٢٠٠٤

عدد الصفحات: ٣٩٣ صفحة قطع وسط

يعدّ كتاب «المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي» للباحثة الإيرانية فروزان الراسخي واحداً من الدراسات النادرة في إطار البحث المقارن.

أهمية هذه الكتاب، من ناحية أنه يدخل في نطاق تاريخ التصوف المقارن ابتداءً من القرن الأول وحتى القرن الثامن الهجري. ومن ناحية ثانية أنه يضع قضية المرأة في مجال قلّما اعتدنا عليه في الدراسات والأبحاث المعاصرة. عنينا به مجال التصوف والعرفان.

ان هذا الموضوع بالذات، سوف يؤدي إلى طرح سيل من الأسئلة تتعلق بحضور المرأة في مقام الولاية، الذي غالباً ما كان موضوع جدل كبير بين الفقهاء، ورجال اللاهوت من المسلمين والمسيحيين. منها السؤال عما إذ كان من الممكن نظرياً وعملياً أن تبلغ المرأة درجات الترقي العرفاني كما هو حال الرجال من أهل السير والسلوك؟

كيف عالجت الباحثة الدكتورة فروزان الراسخي هذا الموضوع المهم والإشكالي؟ وما الهدف من وضع دراسة تسعى إلى إجراء مقارنة تحليلية، تاريخية للتصوف الإسلامي/ المسيحي، في خلال الفترة التاريخية التي أشرنا إليها؟

الواضح كما يبدو من المقدمة التي وضعتها المؤلفة لكتابها أن الهدف من هذا البحث يتمثل في إجراء مقارنة بين الوضع النظري والواقع العملي للمرأة ضمن الإطار العرفاني الإسلامي المسيحي. ولربما يتضح من خلال هذا الهدف بعض الأمور التي لم يُكشف عنها النقاب، وفتح أفق جديد خلال تحديد نقاط الضعف والقوة في كل هذين النوعين من العرفان، لا سيما وأن مكانة المرأة في العرفان لم تحظ باهتمام معظم المفكرين، أو لم يدركوا أهميتها على الأقل.

بما أن قدم قضية المرأة مواكب لقدم التاريخ البشري، ونظراً لارتباط هذه القضية بكثير من العلوم ولا سيما العلوم الدينية، لذلك وجدت المؤلفة نفسها ملزمة بدراسة آراء وأفكار المفكرين الذي عاشوا منذ ظهور المسيحية وحتى القرن الميلادي الرابع وخلّفوا آثاراً مكتوبة. ومن الطبيعي أن تستوعب هذه الفترة التاريخية مرحلة الإسلام منذ ظهوره، وحتى القرن الثامن الهجري. ولا شك في أن هذا الالتزام الزمني جعلها في حِلّ من استعراض الآراء العرفانية للعرفاء الذين ظهروا بعد هذه المرحلة الزمنية، حتى ولو كانت لديهم آراء مهمة، وخلّفوا كتباً على هذا الصعيد لأنه إذا لم يجر الالتزام بهذه الفترة، لأخذت الدراسة دائرة واسعة جداً من الصعب استيعابها وإشباعها بحثاً.

من الناحية الموضوعية أيضاً، التزمت الباحثة على ما يبدو بالدوران ضمن دائرة البحث النظري، وعدم خوض البحوث العملية والفقهية. وإن كان لبعض الآراء

تأثير كبير جداً على الأحكام الفقهية والآداب العملية، سواء أكان ذلك التأثير مباشراً أو غير مباشر، إلا أن دراسة هذا الموضوع هو من اختصاص فلسفة الفقه، ولذلك فهي بحاجة إلى مجال آخر.

وإذا كانت هناك بعض الإشارات إلى بعض القضايا العملية أو الفقهية والحقوقية في بعض الأحيان، فالهدف منها هو الإيضاح، وبيان أوجه العلاقة والاتصال بين مسارات الفقه ومسارات العرفان. وهكذا تشير الباحثة إلى أن المشكلة الأولى التي يواجهها الباحث في إيران لدى البحث عن مصادر ضمن هذا المجال، هي قلة المصادر من الدرجة الأولى لا سيما حول المسيحية وخصوصاً حول العرفان المسيحي، فكتب العرفان المسيحي الأساسية والمهمة غير متوفرة بالقدر الكافي، والمقدار المتوفر منها، على شكل ترجمات ناقصة لا يمكن الوثوق بها. ولذلك واجهت الباحثة مشكلة كبيرة على هذا الصعيد.

ومما يجدر ذكره هو أن العالم المسيحي قد شهد ظهور نساء عارفات انطلقن في عالم العرفان والسير والسلوك، رغم قسوة الظروف، والضغوط الاجتماعية والدينية لكتابة آرائهن العرفانية، وحالات الكشف والشهود المعنوي الخاصة بهن. ولا شك في أن عددهن قليل جداً، غير أن هذا العدد القليل، من النادر العثور عليه في العالم الإسلامي. أي إنه لم تقم أية عارفة مسلمة حتى القرن الثامن الهجري، بكتابة رأيها وأحوالها العرفانية. ولذلك كان لا بد من الرجوع إلى تقارير الآخرين ضمن هذا الإطار.

فرابعة العددية على سبيل المثال، والتي تعد من أشهر العارفات في دنيا الإسلام لم تخلف أي تصنيف أو أثر مكتوب، وهو ما حمل الباحثين عموماً على الرجوع في هذا المجال إلى معلومات كتبها الآخرون لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً.

هناك الكثير من العوامل التي تظافرت في المجتمعات الإسلامية للحيلولة دون كتابة المرأة لأفكارها والحديث عن أحوالها العرفانية. وربما يمكن ردّ هذه الغفلة التاريخية الكبرى إلى القيود الاجتماعية والفهم الغلط للدين، والتفسير المتطرف للأخلاق العرفانية، والنظر بارتياب لنشاط المرأة، (ولا شك في أن البحث عن مصادر هذه الأسباب ومبعثها بحاجة إلى دراسات اجتماعية ودينية دقيقة، خارجة عن دائرة هذه الدراسة التي وضعتها الباحثة فروزان الراسخي).

هندسة الكتاب

سوف يتبين لنا من خلال قراءة كتاب الراسخي كيف تجنّبت الخوض في المجالات التي لا يتوفّر فيها مراجع ووثائق في هذا الإطار، وهو ما يظهر لنا من خلال استعراض الفصول.

يضم هذا الكتاب أربعة فصول تشكل الإطار الهندسي للقضية المطروحة:

الفصل الأول، ينفرد بدراسة المرأة من منظار القرآن والكتاب المقدس. وبما أن أحد أسئلة هذه الدراسة هو معرفة ما إذا كانت وجهات النظر هذه مستقلة عن التفاسير

الأخرى التي أضيفت إليها فيما بعد. فقد انقسم هذا الفصل إلى قسمين: تمّ في الأول، يتناول وجهات نظر القرآن الكريم والكتاب المقدس في بعض النساء مثل حواء، ومريم، مع تقديم مقارنة إجمالية فيما بين وجهات النظر هذه. كما جرى التحدث في هذا القسم عن النساء اللاّئي ورد ذكرهن في الكتاب المقدس فقط، دون أن يشير القرآن الكريم إليهن بشيء.

أما القسم الثاني، فقد انبري لاستعراض وجهات نظر المسلمين والمسيحيين في المرأة. مقتصراً على آراء المتكلمين، والمفكرين، من غير العرفاء على ضوء التسلسل التاريخي.

الفصل الثالث، يستعرض آراء العرفاء مسلمين ومسيحيين في المرأة وفق التسلسل التاريخي.

الفصل الرابع، ينفرد بالحديث عن كبار العارفات في عالمي الإسلام والمسيحية، واللاّتي لهن تأثير كبير في تاريخ العرفان الإسلامي والمسيحي. ويهتم هذا الفصل بدراسة آراء هؤلاء العارفات واستعراض كتبهن العرفانية. مع تقديم مقدمة إجمالية فيهما الإسلامي والمسيحي، من أجل تسليط الضوء على المقامات العرفانية في كلا العرفانين، وما قطعته المرأة في السلوك العرفاني، والمقامات التي بلغتها.

وفي هذا الفصل أيضاً، مقارنة بين آراء العرفاء المسلمين والمسيحيين مع أخذ جانبين مهمين بنظر الاعتبار: الأول، انطباق أو عدم انطباق آرائهم مع كتابهم المقدس، والثاني، ما يمكن تحديده في كل من الجانبين من نقاط ضعف وقوة. ويمكن القول بأن هناك ثلاث دوائر قابلة للتشخيص في دراسة كل دين:

الأولى، هي الكتب المقدسة في ذلك الدين والتي تمثل الصورة المكتوبة لكلام الشخص أو الأشخاص الذين يتميزون بمرجعية أو ولاية فكرية وعملية، ويحظى كلامهم بنوع من القدسية التي لا تقبل النقاش في ذلك الدين؛ والثانية، هي مجموعة الشروح والتفاسير التي قدّمها علماء ذلك الدين كالمتكلمين، وعلماء الأخلاق، والفلاسفة، والحكماء، والعرفاء، لتلك الكتب المقدسة طوال التاريخ؛ والثالثة، هي التحقيق التاريخي والعملي للدين، أي مجموعة النشاطات والأعمال التي يؤديها اتباع ذلك الدين على مدى التاريخ، مضافاً إليها الآثار والأعمال المترتبة عليها.

ويمكن التعبير عن هذه الدوائر الثلاث بما يلي: الدين من حيث القدسي؛ والدين من حيث الجانب النظري؛ والدين من حيث الجانب العملي والتحقق التاريخي. ويمكن القول على هذا الأساس، بأن الفصل الأول من هذا الكتاب متعلق بالدائرة الأولى، والفصلين الثاني والثالث متعلقان بالدائرة الثانية، في حين أن الفصل الرابع متعلق بالدائرة الثالثة.

لقد أضاءت فروزان الراسخي على دوائر وزوايا كانت مشوبة بالضباب، وخصوصاً في الجانب المتصل بالعرفان الإسلامي/ المسيحي للمرأة، في تلك الحقبة.